

الباب الثامن والعشرون

بناة اليابان

تاريخ اليابان مسرحية لم تكمل بعد ، قد تم منها ثلاثة فصول ، أما فصلها الأول - بغض النظر عن القرون البدائية الأسطورية - فهو اليابان البوذية الكلاسيكية (٥٢٢ - ١٦٠٣ ميلادية) التي دخلتها المدنية فجأة على أيدي الصين وكوريا ، والتي هذبها الدين وصلقها ، فخلقت آيات الأدب الياباني والفن الياباني في العصر الذي يدونه التاريخ ؛ أما الفصل الثاني من المسرحية فهو اليابان الإقطاعية الآمنة التي تنسب إلى توكوجادا شوجوناتي (١٦٠٣ - ١٨٦٨) والتي اعتزلت العالم وحصرت نفسها في نفسها ، لا تريد لنفسها شيئاً من اتساع الرقعة ولا تنشأ تبادلاً تجارياً مع الخارج ، قانعة بالزراعة منصرفة إلى الفن والفلسفة ؛ والفصل الثالث واليابان الحديثة ، التي كشف عنها الستار أسطول أمريكي سنة ١٨٥٣ ، والتي اضطرتها العوامل الداخلية والخارجية اضطراراً أن تضرب بسهم في التجارة والصناعة ، وأن تبحث عن خامات من الخارج وأسواق في الخارج ، وتقاتل قتالاً مستميتاً في سبيل التوسع ، محاكية في ذلك بلاد الغرب في نزعتها الاستعمارية وطرائقها في هذا السبيل ، مهددة بذلك سيادة الجنس الأبيض وسلام العالم ؛ وإن سوابق التاريخ كلها لتدل على أن الفصل التالي من المسرحية سيكون قتالاً(*) .

لقد درس اليابانيون مدنيتنا دراسة فاحصة لكي يتشربوا معاييرها ثم يفوقوها ، فقد يكون من الحكمة أن تدرس مدنيتهم في صبر يشبه صبرهم في دراسة مدنيتنا ، حتى إذا ما تأزم الأمر على نحو يضطرنا إما إلى حرب أو تفاهم معهم ، كان في مقدورنا أن نصل معهم إلى تفاهم .

(*) صدر هذا الكتاب قبل الحرب الأخيرة ، وقد جاءت الحرب مصداقاً لما تنبأ به المؤلف

الفصل الأول

أبناء الآلهة

كيف خلقت اليابان - أثر الزلازل

في البداية كانت الآلهة ، هكذا يقول أقدم ما دون عن اليابان من تاريخ^(١) وكانت الآلهة تولد ذكراً وأنثى ، ثم تموت ، حتى صدر الأمر في النهاية من شيوخ الآلهة إلى اثنين منها ، هما « إيزانا جي » و « إيزانا مي » . وهما أخ وأخت من الآلهة ، أن يخلقا اليابان ، فوقفا على جسر السماء العائم ، وقذفا في المحيط برمح مرصع بالجواهر ، ثم رفعاه إلى السماء فتقطرت من الرمح قطرات أصبحت هي « الجزر المقدسة » ؛ وشهدت الآلهة ما تصنعه الضفادع في الماء ، فتعلمت منها سر اتصال الذكر بالأنثى ، ومن ثم التقى « إيزانا جي » و « إيزانا مي » التقاء الزوجين وأنسلا الجنس الياباني ، وولدت « أماتيراسو » - إلهة الشمس - من عين « إيزانا جي » اليسرى وكذلك من حفيدها « نيجي » نشأت سلسلة متصلة مقدسة حلقاتهاهم كل أباطرة « دي نيون » (أي اليابان العظمى) فبذلك اليوم حتى يومنا هذا ، لم تشهد اليابان إلا هذه الأسرة الحاكمة الإمبراطورية^(*)

كان الرمح المرصع بالجواهر قد قطر أربعة آلاف ومائتين وثلاثاً وعشرين قطرة ، لأن هذا هو عدد الجزائر التي يتألف منها أرخبيل الجزر الذي هو اليابان^(**) : من هذه الجزر ستمائة مأهولة ، لكن ليس بينها إلا خمس لها حجم

(*) إذا اعترض معترض على هذه القصة بقوله إنها مستحيلة الحدوث ، فقد يرد على اعتراضه بما قاله « موتو - أوري » منذ زمن طويل ، وهو أعمق النقاد اليابانيين أثراً ، إذ قال إن تناقض القصة نفسه هو دليل صدق روايتها إذ من ذا تسوغ له نفسه أن يلقى عقله إلغاء يتيح له أن ينتحل قصة قد بلغت كل هذا الحد الظاهر من تفاهة واستحالة على التصديق ؟ (٢) .

(**) كلمة اليابان قد تكون تحريفاً للاظة تستعمل في الملايو ومناها جزر وهي =

جدير بالاعتبار ؛ أما أكبرها فهي « هوندو » أو « هونشو » ويبلغ طولها ١١٣٠ ميلاً ومتوسط عرضها هو ٧٣ ميلاً ، ومساحتها واحد وثمانون ألف ميل مربع ، وهي تعادل نصف مساحة الجزر كلها ، ويشبه موقعها - كما يشبه تاريخها الحديث - موقع إنجلترا وتاريخها : فقد حمتها البحار المحيطة بها من الغزوات ، وحملتها سواحلها الطويلة التي يبلغ مداها ثلاثة عشر ألف ميل على أن تكون أمة بحرية ، فكأنما قضى عليها المؤثر الجغرافي والضرورة التجارية أن تبسط لنفسها سيادة واسعة على البحار ؛ وتلتقى الرياح والتيارات البحرية الدافئة الآتية من الجنوب ، بالهواء البارد الهابط من قمم الجبال ، فينتج عن ذلك في اليابان مناخ إنجليزي تملؤه الأمطار ، وتكثر فيه الأيام الغائمة بالسحب^(٤) ، ومن ثم تمتلئ أنهارها القصيرة السريعة الانحدار ، ويزدهر فيها النبات وتزدان المناظر ، فهائنا - إذا ما بعدت عن المدن والمساكن العتيقة القذرة - ترى نصف البلاد جنة عدن في ازدهارها ، وليست جبالها أكاداساً مركومة من الصخر والقدر ، بل هي ذوات أشكال فنية ، تكاد تبلغ في تخطيطها حد الكمال ، كما هي الحال في فيوجي^(*) .

ولا شك أن هذه الجزر قد ولدتها الزلازل لا القطرات التي انثرت من الرياح^(٦) ؛ فليس على الأرض مكان - وربما جاز أن نستثنى أمريكا الجنوبية - قد عانى كل ما عانته اليابان من اضطراب أرضها ، فحدث سنة ٥٩٩ أن اهتزت

- « يابانج » أو « يابون » ؛ وهذه اللفظة الأخيرة هي ما تقابل في اليابانية كلمة « نيبون » ثم هذه بدورها هي تحريف الكلمة الصينية التي معناها « المكان الذي تشرق منه الشمس » وهي « جب - ين » ؛ وينعت اليابانيون كلمة « نيبون » عادة بكلمة « داي » ومعناها العظيم^(٣) .

(*) « فيوجي سان » (أو قد يسمى حديثاً فيوجي ياما) هو معبود الفنانين والكهنة ، ويكاد يكون في شكله مخروطاً مندرج السفوح تدرجاً سهلاً ، وترتفع قمته ١٢٣٦٥ قدماً ، يصعد بها ألوف من الحجاج كل عام ؛ وكانت آخر مرة ثار فيها بركان فيوجي في سنة ١٧٠٧^(٥) .

الأرض وابتلعت قرى بأكملها في فها الضاحك ، وهوت الشهب ولملت
المذنبات وابتلعت الشوارع بالثلج في منتصف يوليو ، وأعقب ذلك قحط
ومجاعة ، وقضى من اليابانيين ألف الألوف ، وكذلك حدث سنة ١٧٠٣
أن قضى زلزال على اثنين وثلاثين ألفاً في طوكيو وحدها ، وعادت العاصمة
سنة ١٨٨٥ فتقوض بنايتها من جديد ، وانفجرت الأرض عن فجوات
واسعة ابتلعت في جوفها ألوفاً ، وجعلوا يحملون جثث الموتى في عربات
النقل ليقذفوا بها بعيداً جماعات جماعات ؛ وفي زلزال ١٩٢٣ أتت موجة
المد وألسنة النار على مائة ألف نفس في طوكيو ، وسبعة وثلاثين ألف نفس
في يوكاهاما وما يجاورها ، وأما كاما كورا - التي طالما أحسنت ابودا -
فكادت تنك من أساسها^(٧) ، مع أن التمثال النحيل الذي كان قائماً هناك للقديس
الهندي (يقصد بوذا) قد لبث وسط هذا الخراب الشامل قائماً كما هو ، لم يصبه
سوى ارتجاج ، كأنما أراد بقيامه ذاك سليماً من الأذى أن يضرب مثلاً يوضح
للناس أهم درس يلقيه التاريخ - وهو أن الآلهة يمكن لها أن تصمت في مختلف
اللغات ؛ ولبث الناس في حيرة تملكهم حيناً ، كيف ينزل هذا الخراب كله
بأرض خلفتها الآلهة وتحكمها الآلهة ؛ وأخيراً فسروا هذا الاضطراب بأن
سمكة ضخمة نحت الأرض انزعجت في نعاسها فاهتزت^(٨) ويظهر أن لم
يطراً ببال أحد إذ ذاك أن يغادر تلك المدينة التي تعرض ساكنيها لأكثر
الخطر ؛ ففي اليوم التالي لاهتزاز الأرض بزلزالها العظيم الأخير ، استخدم
صبية المدارس قطعاً من مادة الطلاء المتناثرة أقلاماً ، والأحجار الارتوازية
المنثورة من بيوتهم المحطمة الواحاً^(٩) واحتملت الأمة صابرة هذه الضربات
من يد القدر وخرجت من هذا الدمار المتكرر نشيطة نشاطاً لا سبيل إلى الحد
منه ومقدمة على نحو ما يكون المتفائل إقداماً .

الفصل الثاني

اليابان البدائية

قوماتها الهندسية - مدنيها الباكرة - الدين « شنتو » -

البروزية - بدايات الفن - « الإصلاح العظيم »

لقد ضاعت الأصول اليابانية - كما ضاع غيرها من أصول الامم - في خليط عام من النظريات ، فيظهر أن الجنس الياباني مزيج من عناصر ثلاثة : عنصر بدائي أبيض جاء عن طريق « الأينو » الذين وفدوا إلى اليابان من منطقة نهر أمور في العصر الحجري الأخير ؛ وعنصر أصفر مغولي جاء من كوريا أو عبر خلالها في نحو القرن السابع قبل المسيح ؛ وعنصر قاتم من الملايو وأندونيسيا تسرب إلى البلاد من جزر الجنوب : ففي اليابان - كما في أي بلد آخر - شهدت البلاد خليطاً من عناصر مختلفة قبل أن تشهد - بمئات السنين - قيام نمط جنسي جديد يتكلم بلغة جديدة وينشئ مدينة جديدة ، وكون عملية المزج بين هذه الأجناس لم تبلغ تمامها بعد ، تراه ظاهراً في الفوارق التي بين الأرستقراطية الطويل النحيل طويل الرأس ، وبين الرجال من الشعب في قصره وبدانته ورأسه العريض .

وتصف الروايات التاريخية الصينية التي ترجع إلى القرن الرابع ، تصف اليابانيين بأنهم « أقزام » ، ثم تضيف إلى ذلك أنهم « لا يعرفون الثيرة ولا الوحوش الكاسرة ؛ وهم يشيّمون وجوههم بزخارف تختلف شكلاً باختلاف المنزلة الاجتماعية ، ويلبسون رداء مصنوعاً من قطعة واحدة ، ولديهم حراب وقسيٌّ ورماح في أطرافها حجر أو حديد ، وهم لا يلبسون أحذية ، ومن خصائصهم طاعة القانون وتعدد الزوجات ويدرمنون الشراب وهم طوال الأعمار .

ونساءهم يطلين أجسامهن بالأحمر والقرمزي» (١١) . وتروى هذه المدونات عنهم « أن ليس يقع بينهم سرقة ، وقلما يشكو أحد منهم أحداً إلى القضاء » (١٢) ، ولم تكد المدنية تبدأ عندهم ، وقد صور « لافكاديويهرن » - مدفوعاً بصدق نظره وبجبه لذلك العصر القديم - صوره فردوساً لا يشوبها استغلال أو فقر ؛ ووصف « فنلوزا » طبقة الفلاحين إذ ذاك بأنها مكونة من سادة عسكريين مستقل بعضهم عن البعض (١٣) ؛ وجاءت الصناعات اليدوية إلى اليابان من كوريا في القرن الثالث الميلادي ، وسرعان ما انتظمتها نقابات (١٤) ، ودون هؤلاء الصناع اليدويين ، كانت تقع طبقة كبيرة من العبيد ، تُجمع أفرادها من المسجونين وأسرى الحروب (١٥) ، وكان النظام الاجتماعي إقطاعياً إلى حد ما وقبلياً إلى حد ما ، فكان بعض الفلاحين يزرعون الأرض عبيداً للسادة أصحاب الأرض ، ولكل قبيلة رئيس يكاد يكون ملكاً عليها (١٦) ، وكانت الحكومة بدائية في تفككها وضعفها .

كانت العاطفة الدينية عند اليابانيين الأولين تجد ما يشبعها في العقيدة بأن لكل كائن روحاً ، وفي الطوطمية ، وفي عبادة الأسلاف وعبادة العلاقة الجنسية (١٧) ؛ فعندهم أن الأرواح سارية في كل شيء - في كواكب السماء ونجومها ، في نباتات الحقل وحشرات ، والأشجار والحيوان والإنسان (١٨) ، ويعتقدون أن عدداً لا يحصى من الآلهة يحوم فوق الدار وساكنها ويرقص مع ضوء المصباح ووجهه إذا رقص (١٩) ، والاتصال بالآلهة يكون عندهم بإحراق عظام غزال أو قوقعة سلحفاة ، وبفحص العلامات والخطوط التي تحدثها النار ، فحسباً تستمد فيه المعونة من الخراء ؛ وتذكر لنا المدونات القديمة الصينية أنه بهذه الطريقة « كان اليابانيون يستوثقون من طيب الحظوظ وخبيثها ، ومن ملاءمة الظروف لقيامهم برحلات برية وبحرية أو عدم ملاءمتها » (٢٠) . كانوا يخافون الموتى ويعبدونهم ، لأن غضبهم قد ينزل بالعالم شراً مستطيراً ؛ فلكى يسترضوا هؤلاء الموتى ، كان لزاماً عليهم أن يضعوا لهم النفائس في

قبورهم - كأن يضعوا سيفاً إذا كان الميت رجلاً ، ومرآة إذا كانت امرأة ، وكانوا يؤدون الصلاة ويقدمون فاخر الطعام أمام صبور أسلافهم في كل يوم^(٢١) وكانوا يلجأون إلى التضحية البشرية آناً بعد آن توسلاً لإيقاف مطر غزير ، أو ضمناً لثبات بناء أو جدار ، وكان يحدث أحياناً أن يدفن الأتباع مع سيدهم الذى مات ليدافعوا عنه في أولى مراحل حياته الآخرة^(٢٢) .

ومن عبادة الأسلاف نشأت أقدم ديانة قائمة في اليابان ، وهى « شنتو » أى « طريق الآلهة » ولها صور ثلاث : العقيدة المنزلية التى تتجه بالعبادة إلى أسلاف القبيلة ، وعقيدة الدولة التى تتجه بالعبادة إلى الحاكين الأسلاف وهم الآلهة الذين أسسوا للدولة بناءها ؛ فكانوا يخاطبون السلف المقدس الأول الذى عنه جاءت سلسلة الأباطرة ، ضارعين سبع مرات كل عام ، فيتوجه إليه الإمبراطور نفسه بالدعاء ، أو من ينوب عن الإمبراطور ؛ ثم كانوا يؤدون له صلاة خاصة إذا ما همت الأمانة بالاضطلاع بمشروع تراه استثنائياً فى قداسته ، مثل الاستيلاء على شانتونج (سنة ١٩١٤)^(٢٣) ؛ ولم تكن ديانة « شنتو » بحاجة إلى تفصيل مذهبي أو طقوس معقدة أو تشريع خلقى ، ولم تكن لها طبقة من الكهنة خاصة بها ، كلا ولا تذهب إلى ما يبعث العزاء فى نفوس الناس من خلود الروح ونعيم الفردوس ؛ فكان كل ما تطالب به معتنقها أن يحجوا آناً بعد آن لأسلافهم وأن يقدموا لهم ضراعة الحاشعين ، ويفعلوا كذلك لإمبراطورهم ولماضى أمتهم ؛ وقد حلت لهم عقيدة أخرى محل هذه العقيدة حيناً ، لأنها مسرفة التواضع فى جزائها التى تعد به ، وفى أوامرها التى تلزم بها الناس .

وفى سنة ٥٢٢ جاءت البوذية - وكانت قد دخلت الصين قبل ذلك بخمسةة عام - إلى اليابان خلال القارة الآسيوية ، فأخذت تغزو أرجاءها غزواً (٢ - ج - ٥ - مج ١)

سريعاً ؛ وقد تأمر عاملان فكتباً لها النصر ، وهما : الحاجات الدينية عند الشعب ، والحاجات السياسية عند الدولة ، لأنه لم تكن بوذية بوذا هي التي جاءت إلى اليابان ، بما عرفت به تلك البوذية من لا أدرية وتشاؤم وتزمت وشوق إلى النعيم الناشئ عن انحاء الفرد في الكل ، بل جاءت بوذية « ماهايانا » بأهلها الوديعه من أمثال « أميدا » و« كوانون » ، وباحتفالاتها الدينية البهيجة ، واعترافها ببوذيين منتظرين يخلصون البشر ، وبخلود الروح الإنسانية ، ثم ما هو خير من ذلك ، جاءت هذه البوذية تبتث في النفوس بأسلوب لا يتقاوم لفرط رفته ، كل فضائل الورع والسلام والطاعة التي يمكن أن تصوغ الناس صياغة تجعلهم أكثر انصياعاً للحكومة . وراحت تفسح للمظلومين من الأمل والعزاء ما يجعلهم راضين قانعين بشظف عيشهم ؛ وتخفف من وطأة الحياة الكادحة وما فيها من برود يشبه برود النثر وفتور العمل المكرور المعاد ، بما تبتثه في تلك الحياة من شعر متمثلة في الأساطير والصلاة ، ومن مسرحية تتمثل في الاحتفالات البهيجة ، وهيأت للناس سبيل الوحدة في الشعور والعقيدة ، وهما شيئان طالما رحب بهما الساسة ، لأنهم أصل النظام الاجتماعي ، ودعامة القوة القومية .

ولسنا ندري أكانت هي السياسة أم الورع ، هو الذي كتب النصر للبوذية في اليابان ، فلما مات الإمبراطور « يومي » سنة ٥٨٦ ميلادية ، تنازعت وراثته العرش من بعده أسرتان متنافستان ، تنازعا استخدمت فيه السلاح ، واعتنقت كلتاها العقيدة الدينية الجديدة اعتناقاً سياسياً ، واستطاع الأمير « شوتوكوتايشي » - الذي يقال عنه إنه ولد وفي يده تيممة مقدسة - أن ينتهي بالحزب البوذي إلى النصر ، ثم أقام على العرش « الإمبراطورة سويكو » . ولبت تسعة وعشرين عاماً (٥٩٢ - ٦٢١) يحكم الجزر المقدسة أميراً امبراطورياً ووصياً على العرش وراح يغدق العطاء لمعابد البوذيين ، ويشجع رجال الدين البوذي ويعينهم ،

ويدخل الأخلاق البوذية في صلب القوانين القومية ، حتى لقد أصبح بوجه عام للبوذية اليابانية ما كان « أشوكا » لها في الهند ، وامتدت رعايته إلى الفنون والعلوم ، واستقدم الفنانين ومهرة الصناعات من كوريا والصين ، وكتب التاريخ ، ورسم التصاوير . وأشرف على بناء معبد « هوريوجي » ، وهو أقدم آية بقيت لنا في تاريخ الفن الياباني .

لكن على الرغم مما تركه هذا الرجل الناشر لأسباب الحضارة من مختلف الآثار ، وعلى الرغم من كافة الفضائل التي راحت البوذية تبثها في النفوس أو تبشر بها ، فقد طغت على اليابان أزمة أخرى عنيفة ، ولم يكن قد مضى على موت « شوتوكو » جيل واحد ؛ ذلك أن أرستقراطياً طموحاً ، هو « كاماتاري » قد دبر مع « الأمير تاكا » ثورة في القصر ، كانت بداية واضحة لتغير مجرى التاريخ السياسي في « نيبون » (اليابان) حتى يشير إليها المؤرخون من أبناء البلاد في حماسة وطنية فيصفونها بقولهم « الإصلاح العظيم » (سنة ٦٤٥) ؛ فقد قتل ولي العهد ، وأجلس على العرش ملك كهمل لم يكن إلا صورة ، وكان الأمر في يد « كاماتاري » باعتباره رئيساً للوزراء ، فظفق بمعونة « الأمير تاكا » - حين كان لم يزل ولياً للعهد ، ثم حين أصبح هو الإمبراطور تنشى « - يعيد بناء الحكومة اليابانية بحيث جعلها سلطة إمبراطورية أوتوقراطية ؛ وارتفع الحاكم من مجرد كونه زعيماً لكبرى القبائل ، إلى سلطة شاملة تسيطر على كل موظف في اليابان ، وهو الذي يعين كل الحكام ، وتدفع له الضرائب كلها مباشرة ، وأعلن أن البلاد كلها ملك يمينه ؛ وبهذا سارت اليابان بخطوات سريعة من ارتباط بين القبائل مغلخل العرى وروءساء قبائل يشبهون أطراف الإقطاع ، إلى دولة ملكية وثيقة العرى فيما يربط بين أجزائها .

الفصل الثالث

العصر الإمبراطورى

الاباطرة - الأرستقراطية ، تأثير الصين . عصر كيوتو الذهبى - التدهور

منذ ذلك الوقت فصاعدا ، جعل الإمبراطور يتمتع بألقاب ضخمة ، فكان يسمى أحيانا « تنشى » أو « شمس السماء » على أن اسمه كان غالباً « تنو » أى « الملك السماوى » ونادراً ما كان يطلق عليه « ميكادو » أى « الباب المجيد » ؛ وكان من امتيازه أن يطلق عليه اسم جديد بعد موته ، يعرف فى التاريخ باسم خاص يختلف كل الاختلاف عن الاسم الذى أطلق إبان الحياة ؛ ولكى يضمن اتصال النسل الإمبراطورى ، كان للإمبراطور الحق فى أى عدد شاء من الزوجات أو الرفيقات ؛ ولم يكن حتماً أن يهبط الملك إلى أكبر الأبناء ، بل توول ولاية العرش من بعده إلى من كان فى رأيه هو ، أو فى رأى أبطال العصر أقرب أبنائه إلى أن يكون أقواهم ، أو أضعفهم على العرش [فيختار أقواهم إن كان الذى يختار هو الملك ، ويختار أضعفهم إن كان الذى يختارهم أعلام العصر ذوو المصالح الشخصية] وكان الأباطرة فى بواكير العصر الكيوتوى يميلون إلى الورع ، حتى لقد تنازل بعضهم عن العرش ليجعلوا من أنفسهم رهباناً بوذيين ، وحرّم أحدهم السّماكة على أنها إساءة إلى بوذا^(٥) ؛ لكنك نجد بينهم « يوزى » يشذ عن هذا المجرى ، ويتعب الناس بنشاطه ، فجاء مثلاً يوضح كيف تكون الأخطار التى يستهدف لها الملك إذا نشط ؛ فكان يأمر الناس أن يصعدوا الأشجار ثم يرميهم بقوسه ونشابهه ، ويمسك بالعذارى فى الطرقات ، ويوثق قيدهن بأوتار قيثاره ويقذف بهن فى البرك ، وكان مما يمتع جلالته أن يركب جائساً خلال العاصمة فيلهب الناس بسوطه ليدفعهم إلى العمل ، لكن رعيته خلعتة عن العرش آخر الأمر بثورة أعلنت فيها

العصيان السياسي الذي هو بمثابة الخروج على حدود التقوى وهو شيء نادر
الموقع في تاريخ اليابان^(٢٦) ؛ وحدث سنة ٧٩٤ أن انتقلت مراكز الحكومة
من « نارا » إلى « ناجاوكا » ثم لم تلبث بعدئذ أن انتقلت إلى كيوتو (أى عاصمة
السلام) فظلت هي العاصمة خلال أربعة القرون (٧٩٤ - ١١٩٢) التي
يجمع معظم المؤرخين على أنها كانت في اليابان عصرها الذهبي ، فلما أن
كانت سنة ١١٩٠ بلغ سكان كيوتو نصف المليون ، وهو ما لم تبلغه أية
مدينة أوروبية في العصر ما عدا القسطنطينية وقرطبة^(٢٧) ، وقد خصص جزء
من المدينة لأكواخ الناس وحظائر لمشيئهم ، والظاهر أن قد نعم هؤلاء
الناس بعيشهم رغم فقرهم المدبّع ؛ ثم خصص آخر - جعلوه معزولا
بما تقتضيه الحكمة لحدائق العلية والأسرة الإمبراطورية وقصورهم ؛ وكان
يطلق على حاشية الإمبراطور بحق « سكان ما فوق السحب »^(٢٨) لأن تقدم
الحضارة وارتفاع الأساليب الفنية كان من نتائجها في اليابان - كما هي الحال
في غيرها - ازدياد الفوارق الاجتماعية ؛ وبهذا زالت المساواة التقريبية التي
كانت تسود الناس في باكورة الأيام ، وحل محلها تفاوت لا مندوحة عن
وقوعه إذا ما قُسمت الثروة المتزايدة بين الناس على قدراتهم المختلفة
وشخصياتهم وامتيازاتهم المتباينة ؛ ونشأت أسر كبرى ، مثل
ال « فوجيوارا » وال « تايرا » وال « ميناموتو » وال « سوجاوارا » ،
وهي أسر كانت تقيم الأباطرة وتخلعهم ، ويحارب بعضها بعضاً على النحو
العنيف الذي شهدته أيام النهضة الإيطالية ؛ ولقد قرّب « سوجاوارا
متشيزانى » نفسه من قلوب اليابانيين لرعايته للأدب ، وهو الآن معبود
لديهم بوصفه إلهاً للأدب ، وتعطل المدارس تكريماً له في الخامس والعشرين
من كل شهر ؛ وكذلك امتاز الشاب « ميناموتو سانيتومو » بإنشائه في الصباح
السابق لاغتياله هذه المقطوعة الشعرية الساذجة ، التي تمثل الأسلوب الياباني
في أنصع صورته :

إذا لم أعد إليك ثانياً
يا شجرة البرقوق التي تجاور داري
فلا تنسى أنت موعد الربيع
وازدهري ما وسعك الازدهار

ولبت اليابان في عهد « دايجو » المنور (٨٩٨ - ٩٣٠) وهو أعظم الأباطرة الذين أقامتهم على الحكم قبيلة فوجيوارا ، لبت في عهده تنسب - بل بدأت تنافس - ثقافة الصين وأسباب ترفها ، التي كانت عندئذ في أعلى ذرى ازدهارها في عهد « تانج » ؛ ولما كانت اليابان قد استمدت عقيدتها الدينية من « المملكة الوسطى » فقد طفقت تستمد من المعين نفسه لباسها وألعابها وطهيها وكتابتها وشعرها وأساليب حكومتها وموسيقاها وفنونها وبساتينها وعمارتها ، بل خُطِّطت عاصمتها الجميلتان « نارا » و « كيوتو » على غرار « شانجان » ؛ فقد استوردت اليابان ثقافة الصين منذ ألف عام ، كما تستورد ثقافة أوروبا وأمريكا في عصرنا هذا ، وهي في هذا تتعجل أولاً ثم تتمهل لتنتقى وتختار ثانياً ؛ لكنها تحتفظ بروحها الخاصة وشخصيتها الخاصة غيرة عليهما ، ولا تدخر في وسعها جهداً في سبيل مداومة الأساليب الجديدة إلى الأغراض القومية القديمة .

ودخلت اليابان في عهدها « الأنجي » (٩٠١ - ٩٢٢) الذي يعتبر ذروة العصر الذهبي (*) مدفوعة إلى ذلك الصعود بحافز من جارتها العظيمة ، وبوقاية

(*) يقول فولوزا المتحمس : « هذا العهد الذي يسمى بالعهد « الأنجي » هو بزير شك أعلى ذروة بلغتها الحضارة اليابانية ، كما كان عهد « منج هوانج » ذروة الحضارة في الصين ، فلن تبلغ الصين أو اليابان بعد الآن ما كانتا باغتاه إذ ذاك ثراء وفخامة وخصوبة في ذرى العبقرية الحرة ... فن حيث الثقافة العامة وتترف الحياة الذي تناول لعقل والروح مدأ ، لم يشهد العالم مثيلاً لتلك النخامة ، لا نقول في اليابان وحدها ، بل في الدنيا بأسرها ، (٣١)

حكومة منظمة مستتبه ؛ فتراكت الثروة واتجه إنفاقها نحو أسباب حياة مترفة رقيقة تشيع فيها الثقافة بحيث لا يكاد يضارعها في ذلك مثيل حتى جاءت عصور أسرة مديتشي و « صالونات » « التنوير الفرنسى » (*).

وأصبحت « كيتوتو » هي بمثابة باريس وفرسارى في فرنسا ، رقيقة في شعرها وثيابها ، رشيقة في أخلاقها وفنونها ، تضع للأمة كلها معايير المعرفة والذوق ، وانفتحت « الشبهة » عند الناس على اختلاف صورها وإلى آخر حدودها وآمادها ، فابتكر الطهارة صنوفاً جديدة من شهى الطعام ، وكلدسوا الآكال تكديساً ليشبعوا أصحاب النهم وأرباب الذوق في الطعام على حد سواء ، وغض الطرف عن جرائم الزنا على أساس أنها من أنفه خطايا الإنسان (٣٢) ، وتزمل كل سيد أو سيدة بالحرير ونفيس الثياب ، وكنت ترى مختلف الألوان متناسقة على كل كم تلبسها ذراع ، وازدانت حياة المعابد والقصور بالموسيقى والرقص كما أشاع الرقص والموسيقى وروح الرشاقة في بيوت العلية التي كانت تحاط بروائع المناظر الطبيعية من الخارج ، وتزدان صقلا من الداخل بما فيه من آيات البرونز واللؤلؤ والعاج والذهب والخشب الذى حفر حفرأ بلغ الغاية القصوى من دقة الحفر (٣٣) ؛ لقد ازدهر الأدب إذ ذاك وانحلت الأخلاق .

أمثال هذه العصور التي تتلأأ بجوانب الرقة ، يغلب ألا تدوم طويلا ، لأنها ترتكز ارتكازاً مقلقلا على ثروة متراكمة يمكن في أية لحظة أن تذروها عوامل تذبذب التجارة ، وقلق الطبقات المستغلّة وتقلبات الحروب ؛ وقد أدى إسراف القصر آخر الأمر إلى إفلاس الدولة وارتفعت الثقافة بحيث رجحت كفتها بالقياس إلى القدرة العلمية ، فانهى ذلك إلى ملء المناصب الإدارية بمتشاعرين عاجزين ، وأخذ الفساد يتكاثر تحت أنوفهم المعطّرة دون أن يستوقف انتباههم ، ثم أصبحت المناصب آخر الأمر تباع لمن يدفع في شرائها أغلى ثمن (٣٤) وازدادت الجرائم بين الفقراء بقدر ما ازدادت أسباب

(*) عهد التنوير في فرنسا هو القرن الثامن عشر . (المعرب)

الترف بين الأغنياء ، وانبت وباء اللصوص والقراصنة في الطرقات والبحار ، فكانوا ينقضون على كل فريسة تقع في أيديهم ، لافرق عندهم بين الإمبراطور والشعب ، ويسطون على جباة الضرائب فيسلبونهم ما كانوا يحملونه إلى القصر من أموال ، ونظمت عصابات من اللصوص في الأقاليم ، بل وفي العاصمة نفسها ، وكان يتاح لأخطر مجرم في اليابان - كما هي الحال عندنا - أن يعيش في رفاهية علنية ؛ لأنه كان من القوة بحيث يتعذر على أولى الأمر أن يقبضوا عليه أو يسيئوا إليه (٣٥) ، وأهمل الناس عاداتهم وفضائلهم الحربية ، وتراخوا في نظامهم العسكري والأهبة للدفاع ، بحيث باتت الحكومة مفتوحة الصدر لكل ضربة يسدها إليها من شاء من القراصنة القساة ؛ وراحت الأسر الكبيرة تجيش لنفسها جيوشها ، فبدأت بذلك عهداً من حروب أهلية ، ولبثت تناضل بعضها بعضاً نضالاً تسوده الفوضى ، كل منها يحاول أن يظفر لنفسه بحق تعيين الإمبراطور ، وأما الإمبراطور نفسه فكان يزداد كل يوم ضعفاً على ضعف ، في الوقت الذي كان رؤساء القبائل فيه يوشكون أن يعودوا إلى سابق عهدهم من حيث استقلال كل منهم بسلطته ؛ وهكذا أخذ التاريخ مرة أخرى يتذبذب على نحو ما كان يتذبذب قديماً ؛ بين حكومة قوية مركزية من ناحية ، ونظام إقطاعي لا مركزي من ناحية أخرى .

الفصل الرابع

الطغاة

« الشواجنة » - سلطان عسكري في كاماكورا - وصاية هوچو
على العرش - غزوة قبلاى خان - سيادة أشيكاجا - القراصنة الثلاثة

كان من شأن هذه الظروف القائمة أن سنحت الفرصة لظهور فئة من الطغاة العسكريين الذين قبضوا بأيديهم على زمام الأمور كلها ، في كثير من أجزاء الجزر اليابانية ؛ ولم يعترفوا بالإمبراطور إلا على أنه ظاهرة مقدسة في اليابان يحتفظ بها بأقل ما يمكن من النفقات ، وجعل الفلاحون الذين لم تعد تحميهم من عصابات اللصوص جيوش الإمبراطور ولا رجال شرطته ، يدفعون الضرائب لهؤلاء « الشواجنة » أى القادة بدل دفعها للإمبراطور ، لأن « الشواجنة » وحدهم هم الذين كانوا يستطيعون حمايتهم من اعتداء اللصوص (٣٦) . وهكذا ساد النظام الإقطاعى فى اليابان لنفس الأسباب التى كان قد ساد بسببها فى أوروبا ، وأعنى أن مصادر السلطان فى الإقطاعات ازدادت نفوذاً بمقدار ما فشلت الحكومة المركزية النائية فى حفظ الأمن والنظام .

وحدث فى سنة ١١٩٢ أن جمع « يوريتومو » - وهو أحد رجال قبيلة ميناموتو - حوله جيشاً من الجند والعبيد ، وأقام لنفسه سلطة مستقلة ، اتخذت لنفسها اسماً هو اسم المكان الذى قامت فيه ، وهو « باكوفوكاماكوردا » وكلمة « باكوفو » معناها منصب عسكري ، وإذن فهى تدل صراحة على نوع الحكومة الجديدة ؛ ومات « يوريتومو » العظيم فجأة فى عام ١١٩٨ (*)

(*) يروى أهداء « يوريتومو » قصة موته فيقولون إنه كان يركب جواداً إذ رأى شبح أخيه الذى كان قد قتله ، اضطرب الجواد وراكبه معاً لرؤية الشبح ، وتعثرت الجواد وسقط راكمه ، ومات « يوريتومو » بعد ذلك ببضعة أشهر ، وسنه ثلاثة وخمسون عاماً (٣٧) .

وأعقبه في الحكم أبناؤه الضعفاء ، وذلك - كما يقول المثل الياباني - لأن « الرجل العظيم لا ذرية له » (٢٨) فأقامت أسرة منافسة وصاية لنفسها على العرش عام ١١٩٩ ويسمى العهد باسم « وصاية هوجو » ، ولبثت تلك الأسرة مدى مائة وأربعة وثلاثين عاماً تحكم « الشواجنة » الذين كانوا بدورهم يحكمون الأباطرة ؛ فكانت هذه الحكومة الثلاثية فرصة سانحة لقبلاى خان يهاوك فيها غزو اليابان ؛ فقد وصفها له الكوريون الدُّهاة الذين كانوا ينشون بأسها ، فقالوا إنها من الثراء بحيث تستحق الجهود ؛ فأمر قبلاى بناء سفنه أن يشيدوا له أسطولاً بلغ من الضخامة حداً جعل شعراء الصين يصورون التلال باكية ترثى ما سلب من غاباتها (٢٩) ؛ ويقول اليابانيون حين يروون حوادث الماضي، رواية الفخور ببطولته - إن السفن بلغت سبعين ألفاً ، لكن المؤرخين الذين لا يتأججون بمثل هذه الحاسة الوطنية يكفهم من العدد ثلاثة آلاف وخمسمائة سفينة ومائة ألف محارب ؛ وتبدى هذا الأسطول الجبار على مبعده من شواطئ اليابان في أواخر سنة ١٢٩١ فخرج سكان الجزر الأبطال ليلاقوه في أسطول لهم بنوه على عجل ، وهو أسطول ضئيل بالقياس إلى الأسطول المهاجم ؛ لكن حدث لهذه الأرمادا ، ما حدث للأرمادا التي كانت أصغر منها ، وإن تكن أشهر (٣٠) ، وهو أن هبت « ربح عظيمة » لا تزال مذكورة لما أسدته للناس من جميل ، هبت فحطمت سفائن « الحان » الجبار ، إذ رطمتها على جوانب الصخور ، وأغرقت من بحارته سبعين ألفاً ، وأبقت على بقيتهم ليعيشوا حياة الرقيق في بلاد اليابان .

ودارت الدوائر على أسرة « هوجو » عام ١٣٣٣ ، إذا أصابهم السيطرة هم أيضاً بسمومها ، وانتهى الأمر إلى انتقال الحكم الوراثي من أيدي الأبالسة والعباقرة إلى أيدي الجبناء والحمقى ؛ وكان آخر هذه السلالة رجل يدعى « تاكا

(*) نقصد الأرمادا الأسبانية سنة ١٥٨٨ التي كانت تتألف حين وصلت إلى بحر المانش ،

من مائة وعشرين سفينة فيها أربعة وعشرون ألف محارب (٣٨) .

توكى « يحب الكلاب حباً شديداً ، فيقبلها بدل الضرائب ، حتى لقد جمع منها عدداً يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف ، وأعد لها حظائر زينها بالذهب والفضة وأطعمها بالسّمك والطيور ، وهياً لها العربات المزخرفة تحملها للتنزه ؛ فوجد الإمبراطور القائم على العرش إذ ذاك ، وهو « جو دايجو » أن انحلال حماته فرصة سانحة يستعيد فيها سلطانه الإمبراطورى ، وأيدته قبيلتا « ميناموتو » و « أشيكاجا » وقادتا له جيوشه حتى ظفرتا له بالنصر على « أسرة الوصاية » بعد سلسلة من هزائم ، ومن ثم أوى « تاكا توكى » ومعه ثمانمائة وسبعون من عبيده وقادته ، إلى معبد ، وجرع كأساً أخيرة من « الساقى » ثم أنزل بنفسه « الهارا كبرى » (أى أنه انتحر) ؛ ولقد أخرج أحد الحاضرين أمعاء المنتحر بيديه قائلاً : « إن هذه لتضفى على الخمر طعماً لذيذاً » (٤٠) .

وانقلب « أشيكاجاتا كاوجى » على الإمبراطور بعد أن كان هو الذى أعانه على استعادة سلطته ؛ وقاتل الجيوش التى جاءت لإخضاعه قتالا موفقاً من حيث خطته العسكرية وموامرات الحيانة ؛ وأزال « جو دايجو » عن العرش ليضع مكانه إمبراطوراً صورياً هو « كوجون » ، وأقام فى كيوتو تلك الحكومة لعسكرية المعروفة باسمه « أشيكاجا » التى ظلت تحكم اليابان مدى مائتين وخمسين عاماً سادتها الفوضى والحرب الأهلية التى لم تنقطع ؛ ولا بد لنا أن نعرف هنا بأن جزءاً من تلك الفوضى كان يرجع إلى الجانب السامى من طغاة « أشيكاجا » - وهو جههم للفن ورعايتهم له ؛ فها هو ذا « يوشيمتسو » قد مل الكفاح فأدار يديه نحو التصوير ، حتى أصبح يعد من مصورى عصره الأفاذ ، وارتبط « يوشيامازا » بصلات الود مع كثير من المصورين ، وأعان بالمال كثيراً من الفنانين ، وأصبح فى عالم الفن ذواقة دقيقاً ، حتى ليعد هواة الآثار الفنية اليوم القطع التى كان قد اختارها هو وأتباعه خير ما يستحق الاقتناء (٤١) لكن مهام الحكم الإدارى قد أهملت إذ ذاك ، ولم يعد حفظ

الأمن والسلام في مقدور القادة العسكريين (أي الشواجنة) الأغنياء
ولا في مقدور الأباطرة الذين حل بهم الإفلاس .

فكان من شأن هذه الفوضى نفسها وما أصاب الحياة من انحلال ،
ومطالبة الأمة بقيادة يهثون لها النظام ، أن ظهر القراصنة الثلاثة المعروفون
في التاريخ الياباني ؛ وتقول الرواية إن هؤلاء الثلاثة - وهم « نوبوناجا » ،
و « هيديوشى » و « أياسو » - اعزموا أن يتعاونوا معاً في شبابهم على إعادة
الوحدة لوطنهم ، وحلف كل منهم يمينا على أن يطيع طاعة الأتباع من
يفوز من زميليه الآخرين بموافقة الإمبراطور على توليه حكومة اليابان (٢) ؛
وحاول « نوبوناجا » بادئ ذي بدء ، لكنه مئى بالفشل ، وحاول بعده
« هيديوشى » لكنه مات حين أوشك على النجاح ؛ وكان « أياسو » يراقب
فرصته ، فجاءته آخر الأمر وحاول بعد زميليه ، وأسس الحكومة العسكرية
المعروفة باسم « توكوجاوا » . وبهذا افتتح عهداً هو من أطول عهود السلام ،
وعصراً هو من أخصب عصور الفن ، في تاريخ الإنسانية كلها .

تفصيل الخامس

« وجه القردة » العظيم

ظهور هيدوشى - الهجوم على كوريا - الاشتباك مع المسيحية

كانت الملكة اليصابات و « أكبر » (فى الهند) معاصرين لـ « هيدوشى » العظيم - هكذا قد يحلو لليابانيين أن يذكروا هذه الحقيقة على سبيل التنويه بفضل عظيمهم - كان « هيدوشى » ابن فلاح ، يعرفه أصدقاؤه ، وتعرفه رعيته حين أصبح فما بعد حاكماً ، باسم « سارو من كانچا » - ومعناها « وجه القردة » لأنه لم يكن ينافس في دمامة الوجه أحد حتى ولا كونفوشيوس ؛ وكان والداه قد عجزا عن إخضاعه للنظام فبعثا به إلى مدرسة فى دير ؛ لكن « هيدوشى » سخر من كهنة البوذية سخرية شديدة ، وأثار فى الدير ضجة وثورة ، بحيث انتهى أمره إلى الطرد من مدرسته ، فألحق صيباً فى كثير من الحرف ، وطرده من عمله سبعاً وثلاثين مرة (٤٣) ؛ وجعل من نفسه قاطعاً للطريق ، لكنه عاد فرأى أنه يستطيع أن يسلب وهو مع القانون أكثر مما يسلبه وهو خارج على القانون ؛ ثم التحق بخدمة « الساموراي » (أى حملة السيف) وأنقذ حياة مولاه ، وسمح له بعدئذ أن يحمل سيفاً ؛ وانضم إلى أتباع « نوبوناجا » وعاونه بتفكيره وببسالته ، حتى إذا مات « نوبوناجا » تولى هو قيادة الثائرين الحوارج على القانون ، الذين شنوا حملتهم ليغزوا أرض وطنهم ، فما انقضت ثلاثة أعوام حتى كان « هيدوشى » قد أصبح حاكماً على نصف الإمبراطورية وظفر بإعجاب الإمبراطور العاجز ، وأحس فى نفسه من القوة ما يتيح له أن يهضم فى جوفه كوريا والصين ؛ وفى ذلك قال متواضعاً مخاطباً

« ابن السماء » : « لقد اعترفت أن أطوى الصين كلها تحت سلطاني ،
بمعونة الجنود الكوريين وبتأييد من نفوذك الساطع ؛ فإذا ماتم لي ذلك ،
ستصبح الأقطار الثلاثة (الصين وكوريا واليابان) قطراً واحداً ؛ وسيتم
لي ذلك في يسر كأنما أطوى حصيرة لأحملها تحت ذراعي » (٤٤) لكنه حاول جهده
بغير جدوى ، لأن رجلا شيطانياً من الكوريين اخترع قارباً خريباً من
المعدن - ولولا سبقه في الزمن لقلنا إنه سرق منا ال « مونتور » وال « ميرماك » -
وبهذا القارب راح يحطم سفن « هيديوشي » المثقلة بجنوده ؛ سفينة بعد سفينة ،
وكان « هيديوشي » قد أنفذها بجنده إلى كوريا (١٥٩٢) ، لقد أغرقت
في يوم واحد اثنان وسبعون مركباً ، وانقلب البحر بجزء من دماء ، وورست
أربع وثمانون سفينة أخرى على الشاطئ حيث فر منها اليابانيون وخلفوها
وراءهم ، فأحرقها الظافرون حتى لم ينروا منها شيئاً ؛ وبعد أن تبادل الفريقان
نصراً وهزيمة دون أن يكون فيها ما يفصل بالنصر ، أرجا الفاتحون فتح
كوريا والصين حتى القرن العشرين ؛ وقال ملك كوريا عن « هيديوشي »
إنه حاول « أن يعبر المحيط في صدقة من أصداف المحار » (٤٥) .

وإلى أن يحين ذلك الحين ، استقر « هيديوشي » ليستمتع بهذه « الوصاية
التي أسسها لنفسه ، وليدير فيها عجلة الحكم ، وجمع لمتعته ثلاثمائة غانية ، لكنه
وهب مبلغاً كبيراً من المال لزوجته الريفية التي كان قد طلقها منذ زمن طويل
وبحث عن أحد سادته القدماء ؛ وأعاد له المال الذي كان قد سرقه منه أيام أن
كان يعمل معه صبياً ، وأضاف إلى المال قيمة الربح طوال هذه المدة ؛ ولم
يجرؤ أن يطلب من الإمبراطور أن يوافق له على تلقيب نفسه بلقب « شوجن »
(أي حاكم عسكري) لكن معاصريه عوضوه عن ذلك بلقب آخر أطلقوه
عليه ، وهو « تايكو » أي « الحاكم العظيم » ، وهي كلمة غامرت في رحلة
من تلك الرحلات « الأوديسيّة » التي تتعقب آثارها في علم اللغات ، حتى

دخلت في ختام رحلتها إلى لغتنا نحن وأصبحت كلمة من كلماتنا ، وهي كلمة Tycoon : ووصف مبشر ديني « هيديوشي » ، فقال : « إنه ماكر ماهر إلى درجة تجاوز كل معقول ، فقد نزع عن الشعب سلاحه بحيلة لطيفة ، وهي أنه أمر الناس أن يجمعوا كل ما عندهم من أسلحة معدنية ليصنع من مادتها تمثالاً ضخماً - وهو تمثال « دايبوتسو » أي « بوذا العظيم » الذي يقوم في كيوتو - والظاهر أنه لم يكن يعتقد عقيدة دينية ، لكنه لم يكن أسمى من أن يستغل الدين من أجل غاياته في طموحه أو سياسته . »

ودخلت المسيحية اليابان سنة ١٥٤٩ متمثلة في شخص رجل هو في طليعة طائفة الجزويت ومن خيرتهم ، وأعني به « القديس فرانسيس اكسافير » ولم يكذب يكون جمعية صغيرة حتى أخذت تزداد ازدياداً سريعاً ، بحيث لم يمض جيل واحد بعد قدومه إلا وقد بلغ عدد أعضاء الجزويت سبعين ، وعدد من تحولوا إلى المسيحية في الإمبراطورية اليابانية مائة وخمسين ألفاً^(٤٧)؛ وكانوا من الكثرة في ناجازاكي بحيث جعلوا ذلك الميناء التجاري مدينة مسيحية ، وحملوا حاكمها المحلي « أومورا » على اتخاذ التدابير المباشرة في نشر العقيدة الجديدة^(٤٨)؛ يقول « لافكاديوهيرن » : « إن البوذية في إقليم ناجازاكي قد طمست طمساً تاماً فكهنها أصحابهم الاضطهاد والتشريد »^(٤٩) ؛ ففزع « هيديوشي » لهذا الفتح الروحاني للبلاد ، وارتاب في أن تكون وراءه أهداف سياسية ، فأرسل رسولا إلى نائب رئيس الجزويت في اليابان ، مزوداً بخمسة أسئلة عاجلة :

١ - لماذا وبأى حق أرغم هو (نائب رئيس الجزويت) وأعضاء طائفته

الدينية رعية « هيديوشي » على اعتناق المسيحية ؟

٢ - لماذا حرضوا أتباعهم وأشياعهم على هدم المعابد ؟

٣ - لماذا اضطهدوا كهنة البوذية ؟

٤ - لماذا أكلواهم وبعض البرتقاليين حيوانات نافعة للإنسان مثل العجول والأبقار؟

٥ - لماذا سمح لتجار من بني جلده أن يشتروا أفراداً من اليابانيين يتخذونهم عبيداً في جزر الهند الشرقية؟ (٥٠)

ولما لم يقنع « هيديوشى » بالإجابات ، أصدر سنة ١٥٨٧ الأمر الآتى :
بما أننا قد علمنا من مستشارينا الأمناء أن طائفة دينية أجنبية قد جاءت إلى مملكتنا ، حيث جعلت تبشر بقانون يتنافى وقانون اليابان ، بل ذهبت بها المرأة إلى تحطيم المعابد التي شيدت باسم (آلهتنا القومية) « كامي » و « هوتوكى » وعلى الرغم من أن هذه الفتنة تستحق أقسى ألوان العقاب ، فإننا مع ذلك راغبون في مقابلة أعضائها بالرحمة ، لذلك نأمرهم بمغادرة اليابان خلال عشرين يوماً ، وعلى من يعصى تقع عقوبة الموت ؛ ولن يصيب أحداً منهم أثناء هذه المهلة ضرر أو أذى ، أما إذا بلغ ذلك الأمر ختامه فإننا نأمر بأن يقبض على من يوجد منهم في بلادنا وأن يعاقب على أنه من أخطر المجرمين (٥١) .

وفي وسط هذه المفازع كلها وجد القرصان الأكبر من وقته فراغاً ينفقه في تشجيع رجال الفن ، وأن يُسْتَهْم في مسرحيات « لا » وفي تأييد « ركنيو » في جعل الاحتفال بالشاي حافزاً على تشجيع صناعة الخزف الياباني ، وحلّية هامة تزدان بها الحياة في اليابان ؛ ومات سنة ١٥٩٨ بعد أن استوغد « أيباسو » وعداً ببناء عاصمة جديدة في « ييدو » ، (وهى الآن طوكيو) ، وفي الاعتراف بابن هيديوشى - وهو هيدبورى - وارثاً له على وصاية العرش في اليابان .

الفصل السادس

الشوجن (أى الحاكم العسكرى) العظيم

أياسو فى منصب السلطان - فلسفته - آياسو والمسيحية -
ميرت آياسو - طائفة الحكام العسكرين من توكوجاوا

مات « هيدىوشى » فأعلن « آياسو » أنه حين حلف اليمين له ، لم يشهد على يمينه قطرات من دمه يستقطرها من أصابعه أو من فمه ، كما يقضى بذلك تشريع « ساموراى » أى حملة السيف بل استقطر دمه ساعة حلف اليمين من خدش وراء أذنه ومن ثم كان يمينه غير ملزم بالوفاء (٥٢) ، والتقى بجماعة من قاداته كانوا ينافسونه السلطان ، التقى بهم عند سكيجاهارا ، فعصف بهم عصفاً فى موقعة انتثر على أرضها أربعون ألفاً من القتلى ، وأبقى على « هيدىورى » حتى بلغ سن الرشد فأصبح بذلك خطراً عليه ، وعندئذ أوحى له بالتسليم صيانة لحياته ؛ ولما قرّعه على موقفه ذاك ، حاصر قلعة أوساكا الجبارة حيث كان هيدىورى محصناً ، واستولى عليها فى الوقت الذى كان الفتى فيه يزهد روح نفسه ، ومكّن لنفسه من السلطان كاملاً بأن قتل أبناء « هيدىورى » جميعاً الشرعيين منهم وغير الشرعيين ، وبعدئذ نظم « آياسو » الأمن فى مهارة وقسوة كما نظم القتال ، وحكم اليابان حكماً بلغ من صلاحيته أن رضيت اليابان بأن تحكم بأبنائه وعلى مبادئه مدى ثمانية أجيال .

كان رجلاً له أفكاره الخاصة ، وكان يتخذ لنفسه من قواعد الأخلاق ما تقتضيه ظروف الساعة ؛ فلما جاءت سيدة من أكرم السيدات تشكو إليه أن أحد رجاله قد قتل زوجها لكى يظفر بها ، أمر « آياسو » ذلك الرجل أن يخرج أمعاء نفسه بيده ، وبعدئذ اتخذ من السيدة خليفة له (٥٣) وهو شبيه بسقراط (٣ - ج ٥ - مجلد ٣)

في جعل الحكمة الفضيلة التي لا فضيلة سواها ، ورسم الطرق المؤدية إليها في ذلك الكتاب العجيب الذي أسماه « التراث » أو العهد العقلي الذي خلفه لأسرته عند موته :

« الحياة شبيهة برحلة طويلة يحمل فيها الراحل حملاً ثقيلاً ، فاجعل خطاك وثيدة ثابتة ، حتى لا تتعثر ، واقنع نفسك بأن النقص والتعب هما نسيج الحياة الطبيعي عند من تفتى حياته ، ولن يكون في حياتك ما يمد لك في سبيل السخط أو اليأس فإذا ما نَزَتْ في قلبك نزوات الطموح ، فتذكر أيام الشقاء البالغ حده الأقصى ، التي اجتزتها في ماضي حياتك ؛ فالصبر هو أس السكينة والطمأنينة إلى الأبد ؛ أنظر إلى السخط نظرتك إلى عدوك ؛ فإذا اقتصر علمك على كيف تهزم ، ولم تعلم كيف تنهزم ، فالويل لك ، وبأسوء سبيلك في الحياة الدنيا ؛ فاكشف عن الخطأ في نفسك قبل أن تكشف عنه في سواك » (٥٤) .

أما وقد ظفر لنفسه بالسلطان بقوة السلاح ، فقد قرر أن اليابان لم تعد بها حاجة إلى مواصلة الحروب ، وكترس نفسه للنهوض بما يقيم السلام من وسائل وفضائل ، ولكي يباعد بين « الساموراي » (أي حملة السيف) وبين عاداتهم العسكرية ، شجعهم على دراسة الأدب والفلسفة والخلق الفني ، وهكذا ازدهرت الثقافة في اليابان في ظل حكمه الذي نشره في ربوع البلاد ؛ وتدهورت الروح العسكرية ، وقد كتب يقول : « إن الشعب هو أساس الإمبراطورية » (٥٥) . واستثار في قلوب خلفه الرحمة والرأفة « بالأرمل والأرملة واليتيم ومن لا أنيس له » لكنه لم يتصف بالمبول الديموقراطية ، حتى لقد ذهب إلى أن أفدح الجرائم جميعاً هو العصيان ، « فالزميل » الذي يخرج على صفوف الزملاء من طبقتة ، لا بد من الفتك به فور ساعته ، ولا مندوحة من قتل أسرة الثائر بأسرها (٥٦) ، ومن رأيه أن النظام الإقطاعي هو أفضل

نظام يمكن وضعه لبني الإنسان كما هم في حقيقة طبائعهم ، لأنه يهيئ اتزاناً معقولاً بين السلطة المركزية والسلطة المحلية ، كما يقيم نظاماً طبيعياً وراثياً تتسق به الجوانب الاجتماعية والاقتصادية ، وهو كذلك يضمن استمرار المجتمع دون أن يتعرض لسلطان الحاكم المستبد ، ولا بد لنا من الاعتراف هنا بأن «أياسو» قد نظم في بلاده أكمل صورة عرفها الإنسان لحكومة تقوم على نظام الإقطاع (٥٧) .

وهو - ككل سياسي آخر - قد فكر في الدين على أنه أداة للنظام الاجتماعي قبل أن يكون أي شيء آخر ، وأحزنه أن يرى أن اختلاف الناس في عقائدهم الدينية قد قضى على نصف هذا الخير الاجتماعي بما أحدثته العقائد المتعادية من فوضى ؛ وقد كانت العقيدة التقليدية للشعب الياباني - وهي خليط مضطرب من الشنتوية والبوذية - كانت هذه العقيدة التقليدية من وجهة نظره السياسية الخالصة ، رباطاً بالغ القيمة يربط الجنس الياباني في وحدة زوحية ونظام خلقي وولاء وطني ، وهو على الرغم من أنه نظر إلى المسيحية بادئ ذي بدء بعين التسامح وبأفق عقلي فسيح كاللذين عرفوا عن «أكبر» في (الهند) وأبي أن يفرض عليها ما كان يفرضه عليها «هيدويوشي» من أوامر يعلن بها غضبه منها ، إلا أنه عاد فضاق بها صدىً لتعصبها ، ولاتهامها القاسي للديانة القومية بأنها وثنية ، وما أحدثته بتعصبها الجامح من شحنة لم تقتصر على أن تكون بين المعتنقين المسيحية وبقية أفراد الأمة ، بل امتدت فدبت بين معتنقي الديانة الجديدة أنفسهم (*) ؛ ثم ثار في صدره السخط آخر الأمر

(٥) حدث سنة ١٥٩٦ أن أرغمت التوارب اليابانية سفينة أسبانية على الرسو في ميناء يابانية ، وسانتها عمداً إلى موضع صخري فانحطمت نصفين ، ثم استولى الحاكم المحلي على ما بها على أساس أن القانون الياباني يبيح لأل الأمر أن يضموا أيديهم على كل السفن التي تلجأ مضطرة إلى شواطئ اليابان ، فذارت ثائرة الربان «لانديكوا» واحتج عند وزير «هيدويوشي» وهو «ماسودا» - وكان وزيراً للأشغال - فسأله «ماسودا» كيف أمكن للكنيسة المسيحية أن تظفر بكل ما ظفرت به من أقطار فتخضعها لرجل واحد ، ولما كان «لانديكوا» بحاراً قبل أن يكون سياسياً ، أجاب : «إن ملوكنا إذا ما أرادوا فتح قطر من الأقطار بدأوا بإرسال المبشرين الدينيين يدعون الناس إلى الدخول في ديانتنا ، حتى إذا ما وفقوا إلى شيء من النجاح ، أرسلت الجنود لتنضم إلى من اعتنقوا المسيحية من أهل البلاد ، وبعدئذ لا يجد ملوكنا كبير عناء في إتمام ما بقى» (٥٩) .

لما عرف أن المبشرين بالمسيحية كانوا أحياناً يُستخدمون طلائع للفاتحين وأنهم كانوا في أجزاء متناثرة من أرض الوطن يتآمرون على الدولة اليابانية (٥٨) ؛ فأمر سنة ١٦١٤ بتحريم العبادة المسيحية أو التبشير بتعاليمها في اليابان ، وطالب المعتنقين لهذه الديانة من الأهالي إما أن يغادروا البلاد وإما أن يرتدوا عن عقيدتهم الجديدة ، واستطاع قساوسة كثيرون أن ينجوا بأنفسهم من طائلة هذا القانون ، وألقي القبض على طائفة منهم ، ولكن لم يُعدم أحد منهم في حياة « أياسو » ، فلما قضى نحبه ، صبَّ سادة الحكومة غضبهم على المسيحيين ، وأعتب ذلك موجةً وحشية من الاضطهاد الديني ، كان من أثرها أن انحسرت المسيحية من بلاد اليابان محوً تاماً تقريباً ، ولما كان عام ١٦٣٨ تجمعت البقية الباقية من المسيحيين ، وبلغ عددها سبعة وثلاثين ألفاً ، في شبه جزيرة « شيمابارا » وحصنتها ووقفت وقفة أخيرة دفاعاً عن حرية العبادة ؛ فأرسل لها « أيمتسو » - حفيد أياسو - قوة كبيرة مسلحة لإخضاعها ، وبعد حصار دام ثلاثة أشهر سقطت الحامية في أيدي اليابانيين ، وذبح المعتصمون بها ذبحاً في الشوارع ، لم يبق منهم على قيد الحياة إلا مائة وخمسة أشخاص .

مات « أياسو » في نفس العام الذي مات فيه شيكسبير ؛ وخلف هذا الحاكم العسكري القوي سلطانه إلى ابنه « هيدينااما » مصحوباً بنصح بسيط وهو : « ارعَ أبناء الشعب ، وحاول أن تكون فاضلاً ، ولا تهمل أبداً في حماية البلاد » ؛ وكذلك قدم النصح إلى الأشراف الدير وقفوا إلى جانب سريره ساعة احتضاره ، فكان نصحاً على أحسن ما تجرى به التقاليد كما عُرِفَت عند « كونفوشيوس » و « منشيوس » إذ قال قال لهم : « لقد بلغ ابني الآن سن الرشد ، ولست أشعر بأى قلق على مستقبل الدولة ولكن إذا ما اقرَف خلني خطأً فادحاً في إدارة حكومته ، فتولوا أنتم زمام الأمور بأيديكم ، فليست البلاد ملكاً

لرجل واحد ، لكنها وطن للأمة بأسرها ، وإذا ما أضع حدنى سلطانهم بسبب أخطائهم ، فلن آسف على ضياعه منهم» (٦٠) .

لكن حفدته ملكوا زمان أنفسهم على نحو أحسن جدا مما كان ينتظر أ عادة من ملوك عصرهم أن يفعلوا خلال أمد طويل من الزمن ؛ أما « هيديتارا » فقد كان رجلا متوسط القدرة لا يصدر عنه الأذى ؛ ثم جاء « أيشمتسو » مثلا لصورة أقوى من صور أفراد هذه الأسرة ، فاستعاع بشدته أن يحبط حركة نهضت لإعادة النفوذ الحقيقي إلى الأباطرة الذين كانوا لم يزالوا يملكون ولكنهم لم يكونوا يحكمون ؛ وأغدق « تسونايشي » إغداقا في رعايته لرجال الأدب ، ورعايته للمدرستين المتنافستين العظيمتين في عالم التصوير . وهما « كانو » و « توسا » اللتان زيَّنتا عصر « جنروكو » (١٦٨٨ - ١٧٠٣) ؛ وجاء « يوشيموني » فجند نفسه للغاية التي ما انفكت الإنسانية تهدف لها حيناً بعد حين ، وهي محو الفقر ، وكان ذلك في نفس الوقت الذي كانت ميزانية حكومته تعاني فيه عجزاً جاوز المألوف ؛ فاستقرض من طبقة التجار قرصاً طائلا ، وهاجم إسراف الأغنياء ، وخفض نفقات حكومته خفضاً نزع به نحو جانب الزهد الرواقى ، الذى ذهب به إلى حد إخراجه سيدات القصر الخمسين اللاتى كن أجمل السيدات ، واكتفى في ثيابه بلبس القطن ، وفي نومه بحصير مما يرقد عليه الفلاحون وفي طعامه بأبسط ألوان الطعام ؛ ووضع صنلوقاً أمام قصر المحكمة العليا ليضع فيه الشاكون شكواهم ، ودعا الناس إلى نقد السياسة الحكومية أو موظفى الحكومة على أى نحو شاءوا ؛ فلما قدم رجل يدعى « ياماشيتا » عريضة اتهام لاذع يهاجم بها الحكومة من أساسها ، أمر « يوشيموني » بالاتهام فقرئ على مسمع من الملأ ، وكافأ كاتبها على صراحته بأجزل العطاء (٦١) .

ولقد قرظ « لافكاديوميرن » حكمه في ذلك العهد فقال : « إن عصر « تركوجاوا » كان أسعد العصور التي شهدتها الأمة في حياتها الطويلة » (٦٢)

ويميل التاريخ إلى الأخذ بهذا الرأي نفسه ولو على سبيل الترجيح ، لأن التاريخ لن يبلغ في علمه بالماضي مبلغ اليقين ؛ فكيف يستطيع الإنسان إذا نظر إلى اليابان اليوم ، أن يتصور أن هذه الجزر التي تضطرب أعصابها اليوم اضطراباً كانت منذ قرن واحد مضي يسكنها شعب فقير لكنه قانع ، ويتمتع بعصر طويل من السلام في ظل حكومة تقوم عليها طبقة عسكرية ، ويتجه بمجهوده - في عزلة الهادئة - نحو أسنى غايات الأدب والفن ؟!